لقـــاء عابـــر

أنزل الليل ستائره السوداء معلنة عن قدوم الظلام. بعض من نسيج الهـواء يداعـب النوافذ. النجـوم مازالت متيقظة في اهتيـاج، والقمر في هذه الليلة كأنه دائرة لامعة تتوهج في السماء.

الجميع في سكون وهدوء.

أيقظه رنين هاتفه النقال. كان الوقت قبل الفجر، كان عقربا الساعة يشيران إلى الواحدة صباحًا. مد يده ببطء بعد أن شعر بتنميل في أطراف جسده، ليوقف ذلك الرنين المزعج، مسـح جبينه الذي كانت تتلألأ عليه حبات العرق. جلس في منتصف السرير يلتقط أنفاسه بعد رؤيته لكابوس مزعج.

غـادر غرفته بعـد أن هدأ قليـلًا. مر بـرواق المنزل، سـار بخطوات ضئيلة إلى الحمام؛ ليأتي ببعض من الماء الدافئ؛ ليسـكبه على رأسه، لعله يبعد عنه الأفكار التي تؤذي عقله، وتنهش قلبه، التقط المنشفة، ووقف أمام المرآة، يتأمل نفسه وكأنه يطالع شخصًا غريبًا:

«أنس» شاب طويل القامة، داكن البشرة، مواليد برج «العقرب» يعمل كطبيب جراح، تخرج من كلية الطب منذ ٣ سنوات. يعمل في إحدى المستشفيات بمحافظة كفر الشيخ. كان ذا عينين سوداتين واسعتين، حاجبين كثيفين كاد يلتصقان، ولديه شفتان قرمزيتان، وأنف ذو انحناءة بسيطة في وسط وجه مستدير، ويظلله لحية خفيفة وشارب خفيف يتمدد على شفتاه. متقلب المزاج، سريع الغضب، عصبي لدرجة حادة، مثقف، رقيق القلب، عطوف المشاعر، يهوى الجلوس على البحر، انطوائي، منعزل عن الجميع يميل إلى الوحدة.

ويتمتم مع نفسه:

كيف؟ كيف أصبحت بهذا السوء، أنا لا أعرف؟ من هذا الشخص؟ كيف أصبحت حياتي باهتة؟ كيف وصلت إلى هذا الحد؟ كيف أصبحت وحيدًا؟ أو قل كيف أصبحت الوحدة جزء مني؟

أين ذهبت تلك الابتسامة؟ أشعر أني بلغت من العمر أرذله، مع أني مازلت شابًا.

أشعر أني في القاع، ولا أستطيع النهوض، لا أحد يمد لي يد العون هل سأظل هكذا؟ إلى متى سيقيدني الخوف؟ إلى متى سأظل غارقًا هكذا؟ أعترف لقد أرهقتني الحياة كثيرًا.

جلس على الأريكة، يتناول كوبًا من القهوة، تظهر عليه علامات الإرهاق. رن جرس الهاتف ظهر على الشاشة اسم «خالد» صديقه ضغط على زر الإجابة:

أين أنت يا أنس أحادثك منذ ساعات ولم تجبني؟

نعم، نعم أعتذر كنت مشغولاً قليلًا.

لا مشكلة، هيا تجهز، حان موعد الذهاب للمشفى..

نعم نعم أتذكر سأكون جاهزًا بعد قليل..

تجهز «أنس» في عجل وغادر المنزل منتظرًا صديقه «خالد». أتي بعد عشر دقائق من الانتظار.

«خالد» هو صديق «أنس» من أيام الجامعة دامت هذه الصداقة أكثر من ٧ سنوات. هو أقرب شخص إليه، كان يفهم كل ما يريد قوله دون الحديث. كأنه يصغي إلى قلبه، كان يعرف عنه كل تفاصيل حياته. يشاركه الأحزان قبل الأفراح، يقف بجانبه دائمًا كان سندًا وعونًا.

من مواليد برج «الجدي» كان ذا بشرة قمحية، وعينين بنيتين، حاجبين متموجين على وشك الالتحام، شعر أجعد، أنف طويلة، وعلى جانبها لحية خفيفة، وشارب متوسط الطول يتمدد على شفتيه. مرح، يثرثر كثيرًا، كثير المزاح، يميل إلى سماع الموسيقى، وخاصة لأم كلثوم، لا يحب الحزن ويعاتب صديقه دائمًا على هذا الحزن..

ركب أنس السيارة وانطلقا حتى وصلا إلى المستشفى في الميعاد.

كانت المستشفى مبنى قديم ضخم مهترئ جدرانه، على وشك السقوط مطلية باللون الأخضر. كانت كل النوافذ مغطاة بقطعة من القماش فور دخولها. تجد رائحة كريهة تفوح من الحمامات، كانت هناك حالة فوضي كبيرة، نظرًا للحالة الطارئة الموجودة بالداخل.

أسرع أنس وخالد بالصعود، سئل خالد أحد الممرضين قائلًا:

من تلك التي بالداخل؟

قال: هي ابنة أحد الشخصيات المهمة لا أعرف والدها بالتحديد، ولكن كما قيل لي أن هناك فوضى عارمة حدثت منذ مجيئها..

التفت خالد ولم يجد أنس بجانبه، وهمَّ مسرعًا للبحث عنه..

كان أنس قد ذهب إلى مكتبه، كانت غرفة ضيقة لا يوجد عليها باب، وجدرانها متآكلة مطلية باللون الأزرق. وتتكون من مكتب صغيرعليه بعض الأدوات الطبية، ودولاب متوسط الحجم يميل إلى الإصفرار قرب الباب به بعض من الملفات وبعض الملابس، وكومدينو صغيرعليه بعض الزجاجات الفارغة. جاء مدير المستشفي محدثًا أنس بنبرة فيها شيء من الغضب قائلًا:

هناك حالة خطيرة بالداخل قد تعرضت لحادث سير. عليك أن تسرع وإلا طردتك فورًا، وهمَّ بالخروج.

غمغم أنس قائلًا:

أغرب عن وجهي أيها العجوز الأحمق.

وارتدى ملابسه وغادر المكتب متوجهًا إلى تلك الحالة التي يتحدث عنها الجميع. كان الباب موصدًا من الداخل. طرق الباب ثلاث طرقات، وفُتح الباب ودخل. زينت الغرفة بالكامل كأنها لعروس في ليلة زفافها. كانت فتاة جميلة في منتصف العشرين من العمر، كان وجهها ملطخًا بالدماء. ولم يمنع ذلك أنوثتها البارزة، تمتلك عينين بندقيتين، شعرًا ناعمًا ينسدل منه خصلتان من وراء الحجاب، خصر منحوت كأنه رُسم خصيصًا لها. كيف لهذا الجمال أن يختبئ وراء الحجاب؟ سار بخطوات متثاقلة، اقترب منها، كان لأول مرة يشعر بصوت دقات قلبه، كأنه يعرف من هي. استمر في الاقتراب إلا أن توقف فجأة، بل توقف كل شيء من حوله. شعر بتنميل في أطراف جسده، انتابته حالة من الذعر، أُلجِم لسانه من الصدمة، كانت حبيبته السابقة «أنين». تسارعت دقات قلبه، كم تمني أن لا يراها ثانية، أو أن يُذكر اسمها أمامه..

قالت أنين فجأة محدثة أنس: أين أنا؟ ولِمَ جئت إلى هنا؟ ماذا حدث لي؟

ارتجفت كل ذرة في أنس، وارتفعا حاجباه في دهشةٍ وقال: ألا تتذكرين شيئًا؟

قالت وهي ترمق المكان بنظرةٍ سريعةٍ وانهارت في البكاء:

لا أتذكر شـيئًا، لا أتذكر، ابتعدوا، هيا ابتعدواعني، لا أريد أن أري أحدًا، وصاحت وقد أثار ارتفاع صوتها جميع من يتواجد بالخارج..

اقترب أنس منها بهدوء وقال: لا تقلقي، أنا بجانبك، أنا هنا لمساعدتك.

استجابت أنين وشعرت براحة وثقة كبيرة في حديثه، كأنها تعرف هذا الشخص، حتى أنها في كل خطوة يقوم بها كانت تنظر إليه.

فُتـح باب الغرفة، ودخل رجل كبير في السـن بالغًا من العمر خمسـة وخمسـين عامًا، قصير القامة، بدين الجسـد، على رأسه الأصلع قليل من الشعر الأبيض، له وجه أصفر، شائب اللحية. يرتدي قميصًا أبيضًا يتميز بـأن قميصه يكون فاره البيـاض، وبنطال قماش أسـود اللون، وجزمتيه الملمعتـين بأناقة، ويرتدي قبعة أنيقة. وفي إصبعه الأكبر خاتم ضخم فيه قطعة من الماس. هذا وأن وضعه يكشف عن شيء من الوقار..

قال بلهجةٍ فيها شيء من الكبرياء والوقار محدثًا أنس:

ماذا بها؟

قد تعرضت لفقدان في الذاكرة مفاجئ بسبب الحادث..

يا إلهي! فقدان في الذاكرة. يا إلهي كيف حدث ذلك؟

سـأشرح لك الفقدان في الذاكرة هو تعرض الشـخص فجأة لحالة مـن عدم التذكر لمعلومات وحوادث مـن المفترض طبيعيًا أن يتذكرها.

وقـد تكون حـوادث حصلت منـذ دقائق قليلـة أو مواقـف حدثت في المـاضي أو حتـى المعلومات المسـتقبلية التي سـتمرعليه. وقـد يتعرض الشـخص المصـاب بفقـدان الذاكـرة لعدة نوبات تسـتمر بضعـة أيام، وتذهب ثم تعاود الظهور مرة أخرى..

يا إلهي سأنقلها إلى الخارج على الفور..

قـال أنـس: لا ليس هنـاك فرق كبـير يا سـيدي بين هنـا وهناك بل ستكون الرعاية هنا أفضل، لا تقلق، لا تقلق سأهتم بها..

إذن ما العلاج؟

لعـل العـلاج النفسي والروحـي هو الأهم لأي مـرض. هو الخطوة الأهم فلا بد لعائلة المريض ومن حوله مسـاعدته على تخطي هذه الحالة بمراعاته ومساندته. سأشرف عليها كل ساعتين، أرجوكم لا تحبطوها أو تسألوها أية أسئلة سخيفة، ينبغي أن تنل قسطًا من الراحة.

قال الرجل: نعم نعم لا تقلق لن أحدثها..

هم أنس بالخروج وهو فريسة اضطراب عميق حتى أنه توقف عدة مرات مذهولًا، بعد أن ترقرقت الدموع في عينيه، واشتد حنقه فلما صار في الممر هتف يقول:

«آه ربـاه! ما أبشـع هذا كلـه! كيف؟ لكن لم يجـد أنس الكلمات التـي تعبر عـن حالته العصبيـة الرهيبة التي حلت به بعـد أن رآها.

كـم تمنـي أن لا يتم هذا اللقاء في أي حال من الأحوال؟ كم تمني أن ينسى هذا الوجه؟»

لقـد ابتعـد كل البعد عـن الجميـع، لكن مازالـت بذاكرتـه. لقد بدأ يجثـم على صدره ويقبـض قلبه ويخنقه خنقًا. لا يعرف كيف يتخلص من هـذه النازلـة التي تحيط به؟ وهذا الحزن الذي عصـف قلبه من كل مكان حيثـما يذهب، تظهر لـه إلى أن عاد إلى مكتبه، ووجد خالد صديقه يجلس بالداخـل. فـزع خالد عندمـا رآه، كان أنس في حالة من الهذيان الشـديد وشاحب الوجه، شارد الفكر، وقد عبر وجهه عن حالة الحزن والكرب..

قال خالد بلهجة خائفة ومتوترة:

ماذا حل بك؟

قال أنس وهو مبتسم رغمًا عنه: لقد، لقد رأيتها.

رفعا خالد حاجبيه في دهشة وقال: ماذا؟ ماذا تقصد؟

قال أنس وقد نفذ صبره: أنين.

قال خالد وهو في حالة ذهول: أنين؟ آه رباه! كيف؟ لا يمكن!

نعم نعم هي التي أصيبت بالحادث..

قال خالد متسائلًا في تردد: وكيف حالها؟

لقد فقدت الذاكرة وبعض الإصابات الطفيفة.

صمت كل منهما لمدة لا تقل عن عشر دقائق وغمغم خالد قائلًا:

مازلت تحبها؟

فأجابه أنس مجمجمًا:

هي في ذاكرتي دائمًا، لم أستطع نسيانها قط. أو قل لم أنساها ولو للحظة واحدة. ولم تكن في ذاكرتي فقط. لم تتركني وجاءتني في أحلامي بطفولتها المعتادة، وضحكتها التي تهز كل شيء من حولها. كنت أذهب إلى الأماكن التي كنا نتقابل فيها. وأجلس بالساعات الطويلة أفكر بها؟ كنت، كنت أشعر بوجودها قبل أن تأتي، أشعر بوجودها في كل شيء أقوم به. قد أحببتها من صميم قلبي. إذن لِمَ كل ذلك الألم هل أستحق ذلك.

قال خالد وقد ترقرقت الدموع في عينيه:

لكل حياة حصيلة من الألم، والفائز هو من يتخطى تلك الآلام ويستطيع أن يمارس حياته.

«أيقظه رنين هاتفه النقال كان الوقت قبل الفجر. كان عقرب الساعة يشير إلى الواحدة صباحًا. مد يده ببطء بعد أن شعر بتنميل في أطراف جسده، ليوقف ذلك الرنين المزعج مسح جبينه الذي كانت تتلألأ عليه حبات العرق. جلس في منتصف السرير يلتقط أنفاسه بعد رؤيته لكابوس مزعج، غادر غرفته بعد أن هدأ قليلًا.

مر برواق المنزل، سار بخطوات ضئيلة إلى الحمام ليأتي ببعض من الماء الدافئ، ليسكبه على رأسه لعله يبعد عنه الأفكار التي تؤذي عقله».

«الآن يسمع رنين هاتفه النقال ربما يكون صديقه خالد يذكره بأنه قد حان موعد المستشفي».

(تمت)